عساك تتمنى الموت ولا تجده

قصة واقعية



تأليف: فهد فالح

Dfahads@hotmail.com

عساك تتمنّى الموت... فلا تجده

قصة واقعية

بقلم

فهد فالح

Dfahads@hotmail.com

كانا اثنين... لكنّ الدنيا كانت تراهما واحدًا. يمشيان كتفًا بكتف، كأن القدر خلقهما في لحظة واحدة، ونفخ في صدريهما نفس الروح. سافرا معًا. عادا معًا. وإذا دخل أحدهما في مأزق، دخل الثاني قبله، وخرج بعده. لم يعرفا يومًا كلمة تخلّي. ولا ساعةً واحدة من الغياب.

كانا في آخر الثلاثينات. في القلب نيّة بيضاء. وفي الجيب خير يكفي. وفوقهما سماء يظنانها لا تمطر إلا رحمة. لكن الدنيا لا تُظهر وجهها الحقيقي إلا عند القسمة.

قال أحدهما يومًا: يا ابن الحلال... الحمد لله. وضعنا طيب. ما رأيك نفتح تجارة؟ قال صاحبه: تجارة ماذا؟ قال: العقار.

الأرض. البيت. العمارة. المحل. الشيء المضمون بعد الله.

اتفقا. أربعة ملايين من هذا. وأربعة ملايين من ذاك. ثمانية ملايين. ودخل المال في الشركة. ودخلت الثقة قبله.

ثم قال أحدهما: الإدارة تحتاج رجلًا واحدًا. المركب الذي يقوده قبطانان يغرق. أنت أدرها. أنا عندي عيال. وعندي التزامات. وعندي أعمالي.

قال أبو عبد الرحمن: والربح والخسارة؟ قال صاحبه: أنت أخي. والمال فداء رأسك. لن أحاسبك. ولن أوقفك. ولن أتدخل في بيع ولا شراء.

كانت كلمة عظيمة. لكن بعض الكلمات العظيمة... إذا وقعت في يد رجل لا يخاف الله... صارت حبلًا على رقبة صاحبها.

بدأت التجارة. أرض في أطراف الرياض. وأرض في الخفجي. وأرض في الحفر. وأرض هنا. وأرض هناك. كانوا يشترون بسعر يضحك له الزمن. ثم يبيعون. ثم يشترون. ثم يبيعون. والبلد يكبر. والعمران يمتد. والفرص تولد من الفرص.

وسنة بعد سنة... كبر المال. وصار الاسم معروفًا. وصارت الأرقام تتضخم. حتى بلغت الأملاك ستين مليونًا. بل سبعين.

وكان الشريك صاحب القلب الأبيض

حاضرًا. لم يكن غائبًا. كان يأتي بالزبون. ويدل على الصفقة. ويبحث عن الأرض. ويفتح باب البيع. لكنه لم يكن حاضرًا في الورق. والورق أحيانًا يكون أعمى. يرى الاسم. ولا يرى العرق.

مرت سبع سنوات. ثم تعب الرجل. كبر الأولاد. وكبرت المسؤوليات. وكثرت المصاريف. وجاء إلى أبي عبد الرحمن وقال: يا أبا عبد الرحمن... أريد أن أرتاح. أريد نصيبي. أريد أن أبني لأولادي. أريد مزرعة أمشي فيها آخر العمر. أريد أن أسافر. أريد أن أتنفس. خذ نصيبك. وأعطني نصيبي.

قال أبو عبد الرحمن بوجه هادئ: حاضر.

هات رقم حسابك.

فرح الرجل. ظن أن العشرة لا تموت. وظن أن الأخوة لا تُباع. وظن أن صاحبه سيعطيه حقه كاملًا.

رن الهاتف. وصل التحويل. نظر إلى الرقم. أربعة ملايين. فقط. أربعة ملايين. رأس ماله القديم. الذي دخل به قبل سبع سنوات.

وقف أمام الرقم طويلًا. كأنه ينظر إلى وجه صديق اكتشف فجأة أنه لم يعرفه يومًا.

ذهب إلى أبي عبد الرحمن. قال: يا أبا عبد الرحمن... وصلني أربعة ملايين. قال: نعم.

رأس مالك. قال: رأس مالي؟ وأين سبع سنوات؟ وأين الأراضي؟ وأين العمائر؟ وأين الصفقات؟ وأين الستون مليونًا؟

ابتسم أبو عبد الرحمن ابتسامة لها حد السكين. وقال: أنت ليس لك إلا رأس مالك. أنا الذي أدرت. أنا الذي تعبت. أنا الذي كبرت العمل. وأنت كنت مرتاحًا.

قال الرجل: مرتاحًا؟ أنت الذي قلت لي: دع الإدارة عندي! وأنا كنت آتي بالعقار. وأدل على الزبون. وأساعد في البيع والشراء.

قال: لولا إدارتي لخسرت حتى الأربعة. والأرباح التي كنت تأخذها... كانت زيادة على حقك. اشكرني عليها.

قال الرجل بصوت انكسر: أتأكل حلالي يا أبا عبد الرحمن؟ قال: كل شيء باسمي. الأراضي باسمي. العقارات باسمي. العقود باسمي. عندك شيء؟ اذهب إلى المحكمة.

كانت هذه الكلمة أقسى من السرقة. لأنها لم تسرق المال فقط. سرقت العمر. والثقة. والأخوة. وسبع سنوات من الحلم.

وقف المظلوم. لم يصرخ. لم يشتم. لم يهدد. قال بهدوء موجع: لن أذهب إلى المحكمة. ولن ألاحقك. ولن أزعجك. لكن لي دعوة واحدة. دعني أدعو بها عليك. ثم أمشي.

ضحك أبو عبد الرحمن. قال: ادع من اليوم

إلى الغد. قال الرجل: لا. دعوة واحدة فقط. قال: قل.

نظر إليه الرجل. نظرة تحمل سبع سنوات من التعب. وستة وعشرين مليونًا من القهر. وقال: عساك تتمنّى الموت... فلا تجده.

ثم خرج. ولم يلتفت.

أخذ أبو عبد الرحمن كل شيء. وأعاد لصاحبه رأس المال. أما المظلوم... فخرج ومعه أربعة ملايين. وفي صدره بيت لم يُبن. ومزرعة لم تُشتر. وأولاد لم يأخذوا حقهم. وراحة كانت قريبة... فصارت سرابًا.

أما أبو عبد الرحمن... ففتحت له الدنيا

أبوابها. صفقة تلد صفقة. وأرض تلد أرضًا. ومليون يجر مليونًا. مئة مليون. مئتان. وأكثر.

صار الناس يقولون: ما شاء الله. رجل ذكي. تاجر كبير. يعرف السوق. ولم يعلموا أن السوق قد يعطيك المال... ولا يعطيك البركة.

ومرت عشر سنوات. ونسي أبو عبد الرحمن الدعوة. فالظالم ينسى. لكن الدعوة لا تنسى.

بدأ المرض. اليوم كلية. وغدًا قلب. وبعد غد سكر. ثم ضغط. ثم دوخة. ثم ضيق نفس. ثم رئة لا تشبع من الهواء. ثم جهاز

أكسجين. كل يوم مرض جديد. وكل ليلة عذاب جديد.

كان إذا أراد أن ينام... هاج عليه الألم. إن هدأ الصدر... صرخت الكلى. وإن هدأت الكلى... اشتعل الرأس. وإن هدأ الرأس... ارتفع السكر. وإن نزل السكر... ثار الضغط.

صار الليل خصمه. والسرير سجنه. والمال حوله لا يشتري غفوة واحدة.

أبناؤه حوله. زوجته حوله. الأطباء حوله. الأدوية حوله. لكن الراحة لم تكن حوله.

قال الأطباء: فعلنا كل شيء. دعوه يرتاح. لكن كيف يرتاح من يحمل دعوة مظلوم؟

صار يصرخ في الليل: يا رب خذ عمري. يا

رب أرحني. يا رب الموت. يا رب الموت. وكان الموت بعيدًا. كأنه سمع الدعوة قبله. فلا يأتي.

جلس عنده أحد أبنائه. مسح على يده. قال: يا أبي... حاول أن تنام. الأطباء يقولون إن نفسيتك تزيد المرض.

قال أبو عبد الرحمن بصوت محطم: يا ولدي... أريد غفوة واحدة. ساعة واحدة. لا أقدر. كأن أحدًا دعا عليّ.

قال الابن: هل ظلمت أحدًا يا أبي؟ سكت. طال السكوت. ثم قال: ربما... يومًا من الأيام... ربما.

وفي الصباح نادى ابنه. قال: أحضر دفتر

الشيكات. اكتب شيكًا بستة وعشرين مليون ريال. باسم فلان بن فلان. قال الابن: هذا الاسم مرّ عليّ. من هو؟ قال: رجل أعرفه. اذهب إليه. وقل له: أبي يطلب منك أن تسامحه.

حمل الابن الشيك. ذهب إلى بيت الرجل. طرق الباب. خرج رجل وقور. استقبله. أدخله المجلس.

قال الابن: يا عم... هل عرفتني؟ قال الرجل: لا والله. قال: أنا ابن أبي عبد الرحمن.

تغيّر وجه الرجل. كأن جرحًا قديمًا فُتح في لحظة. قال: حسبي الله ونعم الوكيل.

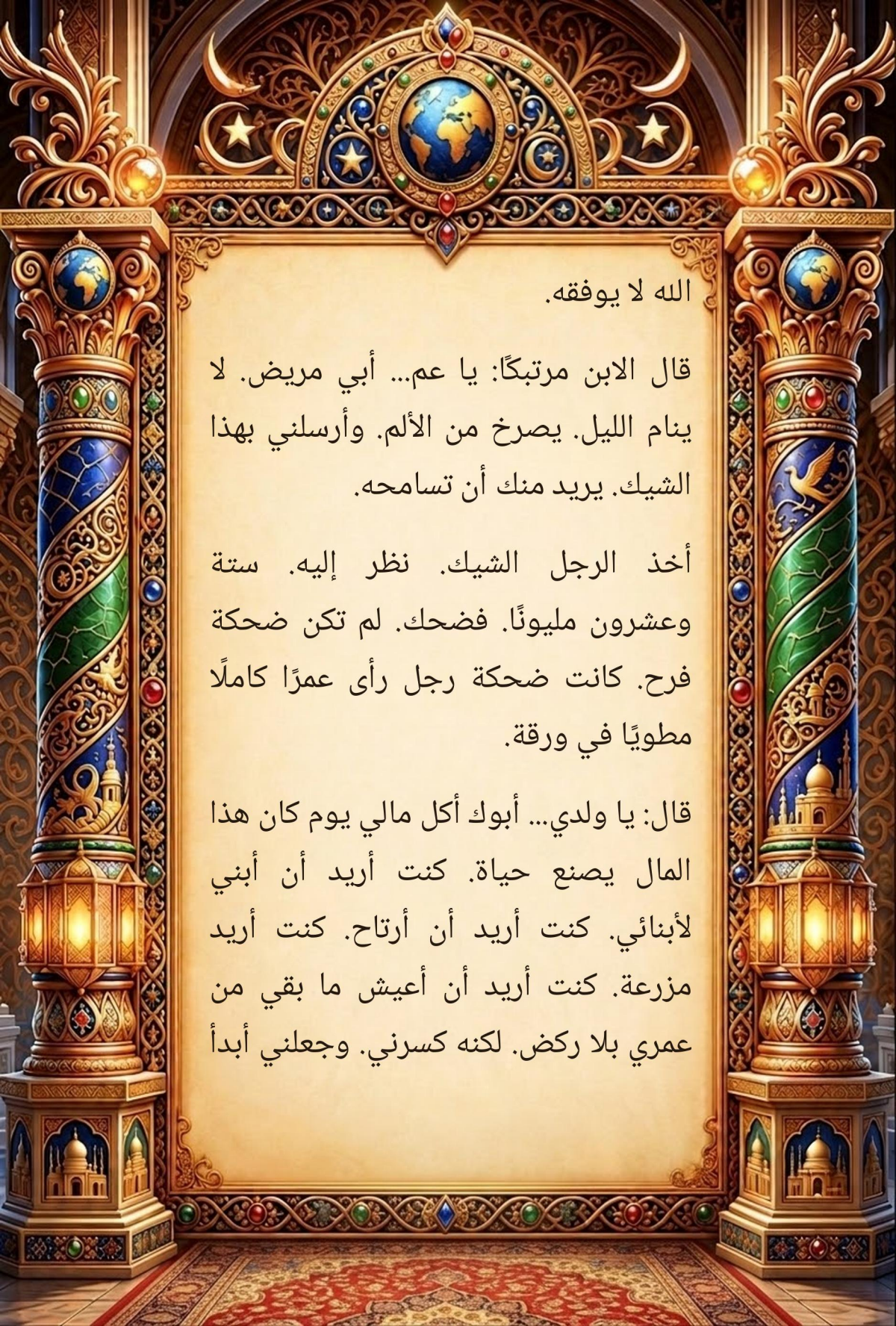

الله لا يوفقه.

قال الابن مرتبكًا: يا عم... أبي مريض. لا ينام الليل. يصرخ من الألم. وأرسلني بهذا الشيك. يريد منك أن تسامحه.

أخذ الرجل الشيك. نظر إليه. ستة وعشرون مليونًا. فضحك. لم تكن ضحكة فرح. كانت ضحكة رجل رأى عمرًا كاملًا مطويًا في ورقة.

قال: يا ولدي... أبوك أكل مالي يوم كان هذا المال يصنع حياة. كنت أريد أن أبني لأبنائي. كنت أريد أن أرتاح. كنت أريد مزرعة. كنت أريد أن أعيش ما بقي من عمري بلا ركض. لكنه كسرني. وجعلني أبدأ

من جديد وأنا كبير.

كنت في حاجة. كنت في حسرة. كنت أنام والنار في صدري. ثم فتح الله عليّ. اشتغلت. وتعبت. ورزقني الله. واليوم عندي من فضل الله أكثر مما كنت أريد. عندي أراضٍ. ومزارع. ومجمعات. وملايين.

لكن أباك جاء متأخرًا. هذا الشيك لا يشتري تلك الليالي. ولا يمحو تلك الحسرة. ولا يعيد السنوات.

قال الابن: يا عم... أبي يتعذب. كلما أراد النوم صرخ. وصار يدعو على نفسه بالموت.

سكت الرجل لحظة. ثم قال بهدوء أشد من

الصراخ: قل لأبيك: أبو فلان يقول لك... تذكّر دعوتي؟ عساك تتمنّى الموت... فلا تجده. والله لا أسامحك. لا في الدنيا. ولا في الآخرة.

ثم رد الشيك. وأشار إلى الباب. قال: خذ مالكم. واخرج. لا أريد أن أراك. ولا أرى أباك.

خرج الابن مكسورًا. عاد إلى أبيه. وبقي الألم يأكل الجسد. وبقيت الدعوة واقفة على باب الليل.

وبعد شهور... مات أبو عبد الرحمن. رحمه الله وغفر له. مات بعد أن تمنى الموت طويلًا.

أما المظلوم... فعوضه الله. فتح له أبوابًا لم تخطر له على بال. وأعطاه حتى نسي يد الناس. ولم ينسَ يد الله.

هذه ليست قصة مال. إنها قصة حق. وليست قصة شراكة. إنها قصة خيانة. وليست قصة مرض. إنها قصة دعوة. دعوة خرجت من قلب مكسور. بلا محكمة. بلا شاهد. بلا ورق. لكنها صعدت إلى من لا تضيع عنده الحقوق.

فلا تقل: كل شيء باسمي. فالسماء لا تسأل: باسم من العقار؟ بل تسأل: لمن الحق؟

ولا تقل: القانون معي. فقد تكسب ورقة.

وتخسر دعوة. وقد تربح المحكمة. وتخسر السماء.

واحذر قلبًا كسرته. واحذر مالًا أكلته. واحذر رجلًا خرج من مجلسك صامتًا. فربما لم يكن صمته ضعفًا. ربما كان يتركك لمن لا ينام.

قد ينام المظلوم. لكن دعوته لا تنام.

حين يصعد الحق إلى السماء

بقلم: فهد فالح
Dfahads@hotmail.com

ليست هذه قصة رجلين اختلفا على مال. وليست حكاية شراكة انتهت بسوء حساب. وليست قصة عمائر كبرت، وضمائر صغرت. إنها قصة الميزان الخفي. ذلك الميزان الذي لا تراه المحاكم. ولا تحفظه الأختام والوثائق. ولا تسجله العقود والأوراق. لكنه قائم عند من لا يغفل. وعند من لا ينام.

كان الظالم يملك الاسم والتوقيع. ويملك الأختام والوثائق. ويملك كل شيء في الظاهر. أما المظلوم فلم يكن يملك إلا قلبًا مكسورًا. وقلب المظلوم شيء لا

يفهمه الظالمون.

هل رأيت ورقة تبكي من الألم؟ وهل رأيت ختمًا يرفع يديه؟ وهل رأيت عقدًا يشكو إلى الله؟ الأوراق تبقى أوراقًا صامتة. لكن القلب المكسور إذا قال: يا رب يا كريم. ارتجفت لها أبواب السماء.

لا تغتر يا صاحبي إذا كانت الأرض باسمك. فقد يكون العقد في درجك. وقد تكون الدعوة فوق رأسك. وقد يكون المفتاح في جيبك. لكن الحكم عند الله وحده.

لم تكن الجريمة يوم ضاع المال. فالمال يعوض مع الأيام. لكن الجريمة الكبرى كانت يوم ماتت الأخوة. ويوم تحولت

الثقة إلى غدر. ويوم اختصرت العشرة الطويلة في عبارة باردة: اذهب إلى المحكمة.

ما أقسى هذه العبارة. وما أبرد هذه الكلمات. كأنها خرجت من حجر. ولم تخرج من صديق. ولم تخرج من أخ.

في تلك اللحظة لم تُفتح أبواب المحاكم. بل فُتح ملف في السماء. وملفات السماء لا تضيع. ولا تسقط مع الزمن. ولا تغلقها الأختام.

خرج المظلوم صامتًا وموجوعًا. والصمت أحيانًا ليس ضعفًا. بل تفويض كامل للسماء. فالذي يطرق باب الله. لا يحتاج

إلى الصراخ.

مضت الأيام والسنون. وكبرت العمائر والمشاريع. وامتلأت الحسابات بالأرقام. وتضاعفت الأموال والأرصدة. وكان الناس يقولون: ما شاء الله عليه. رجل ناجح وذكي. ورجل يعرف التجارة. لكنهم لم يروا شيئًا آخر. لم يروا الدعوة المستيقظة.

كانت الدعوة لا تنام. وكان صاحبها قد نسيها. وكانت السماء تحفظها. حتى جاء موعدها الموعود.

شيئًا بعد شيء. بدأ المال يزداد كثيرًا. وبدأت الراحة تقل شيئًا فشيئًا. كانت العمائر ترتفع عاليًا. وكانت الطمأنينة تهبط

ببطء. كان يفتح أبواب الرزق. ولا يدري أن أبواب السكينة تغلق. واحدًا بعد واحد.

حتى جاء ذلك اليوم. غرفة مليئة بالأطباء. وأجهزة لا تعرف النوم. وأدوية كثيرة ومتنوعة. ووجوه يملؤها الحزن. لكن شيئًا واحدًا كان غائبًا. كانت الراحة غائبة. وكان النوم بعيدًا. وكانت الطمأنينة مفقودة.

امتلك المال كله. لكن المال لم يشتر غفوة. ولم يشتر ساعة نوم. ولم يشتر ضميرًا مطمئنًا.

وهنا اكتشف الحقيقة المتأخرة. أن هناك أشياء لا تباع. ولا تشترى بالأموال. الغفوة الهادئة نعمة. وراحة القلب نعمة. وسكينة

الروح نعمة. وابتسامة الإنسان قبل النوم نعمة. كلها هدايا يمنحها الله. لمن شاء من عباده.

وحين أعاد المال متأخرًا. لم يكن يعيد مالًا فقط. بل كان يحاول شراء زمن ضاع. وحسرة سكنت القلب. وسنوات طويلة من القهر. لكن الزمن لا يباع. والقلوب لا تنسى.

وبعض الحقوق إذا تأخرت. انتقلت من الأرض إلى السماء. وإذا وصلت إلى السماء. فانتظر حكم السماء.

يا أيها الظالم. لا تضحك من دعوة هادئة. فبعض الدعوات لا تصرخ. لكنها تهدم وتزلزل. وبعض الدموع لا يراها الناس.

لكنها تغرق أصحابها. وبعض القلوب المكسورة. أشد فتكًا من الجيوش. لأن أصحابها لا ينتقمون. بل يتركون الأمر لله. لمن لا يظلم مثقال ذرة.

فاحذر أن تكسر قلبًا. واحذر أن تأكل مالًا. واحذر أن تخون ثقة. واحذر أن تستغل طيبة إنسان. فقد يخرج من عندك صامتًا. وقد تظنه انتهى وانكسر. وقد تنام مطمئنًا سعيدًا. لكن هناك من لا ينام. وهناك من لا ينسى. ولا تضيع عنده الحقوق.

قد يسكت المظلوم طويلًا. لكن السماء لا تسكت. وقد ينام المقهور حزينًا. لكن دعوته لا تنام. وقد يمهل الله كثيرًا. لكنه لا يهمل أبدًا.

فلا تغتر بطول الإمهال. ولا تفرح بتأخر الحساب. فالحق قد يتأخر قليلًا. لكنه لا يموت أبدًا. والدعوة قد تصعد هامسة. لكنها تعود مدوية.

ويبقى فوق كل محكمة محكمة. وفوق كل قاضٍ قاضٍ. وفوق كل حكم حكم.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾